حول كتاب كولن ولسون

«أصول الدافع الجنسي»

بقلم سمير كتاب

عندما وقف سقراط بشجاعة الانسان الرائد يوما وقال قبل ان يشرب السم : « ان الحياة التي لا نتمعن فيها لا تستحق ان نعيشها » ، فانه كان ينطق باسم كل الاجيال التي جاءت من قبله بداية بثاليس ، صاحب السؤال الفلسفي الاول ، وكل الاجيال التي كرت من بعده الى ان وصلت الفلسفة بمفهوم جديد الى مرحلة لم تعد فيها تتمعن في الحياة من « الخارج » وانما من « الداخل » ، وكفت أو كادت عن التوغل في الماوراء بحثا عن اجابات ما لتغوص في اغوار الانسان تستشف في عقده وتكوينه ونفسيته عقدا ميتافيزيقية لعلها تفسر الكون بصيغة جديدة ، لعلها تبني ما يسميه الدوس هكسلي « عالما جديدا شجاعا » .

كان القرن التاسع عشر وما بعده نقطة تحول خطيرة في تاريخ الفلسفة ان كان لها من تاريخ . ففي ذلك القرن بالذات كانت المدارس الفلسفية تقوم وتنهار في سنوات معدودات ، كل واحدة منها تطرح تفسيراتها ومقولاتها الخاصة المختلفة حتى بات الانسان يعيش في دوامة من المسميات والتفسيرات والاجتهادات تدوخه بلا رحمة . ولقد اخذت المدارس الفلسفية التي انبثقت في القرن التاسع عشر تضرب في مسالك مختلفة متنافرة بحيث انه يصعب فعلا الاهتداء الى قضية واحدة كبرى اجمع معظم المفكرين الكبار في تلك الحقبة على طرحها . واستمرت الدوامة الى ما بعد القرن التاسع عشر . فالايجابيون مثلا يؤكدون ان الشيء « الموجود » فقط هو ذلك الذي يمكن ادراكه بواسطة الحواس او تعريفه بالرياضيات ، والماديون لا يرون العالم الا كيانا ماديا ، والنسبيون يؤمنون بان العالم متغير ، والعدميون ينسفون كل شيء ويقولون ان الفعل المجرد من اي فعل هو وحده الذي يملك قيمه .

وهكذا فان الفلسفة لم تصل في تاريخها الى مرحلة اكثر تعقيدا وتشعبا وجرأة واخصابا مما وصلت اليه في القرن التاسع عشر . بل ان مفهوم الفلسفة نفسها الذي كان سائدا منذ ارسطوطاليس تغير في ذلك القرن ابتداء من كانت ، ومعه انهارت وثوقيات كثيرة لم يطلها النقد او الاستجواب يوما وضاعت ملامح وثوقيات اخرى .

لكن تقوض فلسفة المطلق الهيجلية يمكن ان يعتبر نقطة التحول الجذرية في تاريخ الحركة الفلسفية الحديثة. فكل او معظم المدارس الهامة في الفلسفة الحديثة ، كما لاحظ احد المفكرين المعاصرين ، بدأت من مهاجمة اراء هيجل ، مثلما فعل ماركس وكيركجارد ، او من رفضها كلية ونقضها ، مثلما فعل رواد المدرسة الواقعية والمدرسة التحليلية كبرتراند راسل ومور . وعلى هذا، يتفق مؤرخو الفلسفة على انه لا يمكن الشروع في اي بحث حول المدارس الفلسفية الرئيسية الحديثة بدون الرجوع الى ذلك الالماني الغريب الفذ الذي سماه البعض « الفيلسوف » الحقيقي بينما اعتبره اخرون « اعظم غلطة » في تاريخ الفلسفة .

والوجودية ولدت اصلا في ذلك القرن ، اي القرن التاسع عشر . وقد تكون في ذلك سابقة لاوانها لانها راحت تدور حول معاني القلق والتمزق النفسي والمعاناة التي ستصبح بعد مرور قرن تقريبا سمات العصر الرئيسية بعد ان اضجتها مجموعة عوامل لم تكن موجودة في تلك الفترة التي عاش فيها مشر الوجودية الاول سورين كيركجارد . (وهذا ما يجعلنا نقدر لكيركجارد ، انصافا لحسه التوقعي التاريخي ، انه سبق نيتشه بحوالي ثلاثين عاما او اكثر وفرويد بحوالي نصف قرن وهكذا دواليك) .

لقد بدأ كيركجارد غوصه الوجودي كذلك من معارضة عنيفة لديالكتيكية هيجل التاريخية ولمطلقه الذي يفترس كل معنى للوجود الحقيقي الحي ويحوله بلمسة ميداس الى مجردات ، وراح يهتم بالانسان وبذاتيته من اجل « خلاصه » الروحي ، وهي كما نلاحظ دعوة دينية في فحواها .

لكن الوجودية كحركة متميزة غربية لا بل اوروبية المولد والمحتد والسمات ، لم تتأكد الا بعد حربين مجنونتين انهارت فيهما القيم ومعاني الاشياء . فحين يقتل الاهل والاصدقاء وتدمر البيوت والممتلكات في لحظات ، فماذا يبقى للانسان غير وجوده الخاص ؟ (يصرخ جون اوزبورن في احدى مسرحياته : « لم يبق لنا سوى انفسنا ، وعلينا بطريقة ما ان نسير بها . لم يبق لنا الا انفسنا » فيجيبه بيكيت : « ليس هناك شيء نستطيع ان نفعله ») . وهكذا تصبح الوجودية ابلغ تعبير لفكر ومزاج الماضي القريب وربما الحاضر في الغرب الاوروبي . لا بل « ان العصر هو الوجودي بطبيعته » ، كما يقول مطاع صفدي ، عصر بطله يعاني السقوط والازمة واللامعنى بعد ان انهارت قيمه الوثوقية القديمة وافترست ادميته حربان طاحنتان ثم مسخت الآلة ما تبقى منها وتركت المسخ يعيش مذعورا ،

مهددا ، تافها في ظل القنبلة المملاق الاسود . ولقد ولد هذا البطل في ذهن الفنان والشاعر اولا ، ولد في تجهمية دوستويفسكي وسوداويته وفي قصائد ريلكه وهولدرلين، ولد ثم عاش في « قلعة » كافكا و « ذباب » سارتر و « غثيانه » وفي « غريب » كامو وعبثه ، في اشعار ايليوت (قبل هروبه الفكري) وفي بعض لوحات بيكاسو وكاي . انه بطل الازمة والسقوط ، ينهض من بين ركام الحروب والصراعات والثورات ، يعيش في مجتمع الثقافة فيه « بلا وجه » ، على حد تعبير ريتشارد هوجارت ، والآلة هي سيدته وصانعة قيمه .

ومن انجلترا ، فريسة السقوط الاولى الغابة مع ذلك عن سطوة الوجودية ، يخرج شاب نحيل فذ ليهز اركان الوجودية وليقول لنا بحس يستمده من نيتشه ، اول المبشرين بتفاؤلية وجودية جديدة من نوع معين ، ان الوجودية التقليدية قد تأسنت منذ امد طويل وانها وصلت الى طريق مسدود . وحين هب كولن ويلسون على المجتمع البريطاني السادر في الف مستنقع متعفن بكتابه الاول « اللامنتمي » (وكان لما يزل في سن الرابعة والعشرين) اعتبر الكتاب فاتحة ثورة جديدة ، بداية « وجودية دينية » جديدة تدعو الى انسان جديد قادر ، ينقذ الانسانية من مخالب المدنية المنهارة .

ولا اريد هنا ان اؤرخ لكولن ويلسون ، مع ان قصة ظهوره الفكري « كفارة مداهمة انقضت على الوضع الفكري والادبي » في بريطانيا ، هي اكثر من مثيرة وممتعة،لكنني اريد ان اشير الى ان كولن ويلسون دأب منذ « اللامنتمي» على نهج سيبلوره ويطوره في كتبه التي تلت « اللامنتمي » ليصل به الى غايته المنشودة التي هي وضع فلسفة جديدة باسم « الوجودية الجديدة » . وهذا الكتاب ، اي «اصول الدافع الجنسي» ، هو حلقة من هذه السلسلة . وهو حلقة هامة لان كولن يطور فيه ، عن طريق تحليل الدافع الجنسي ، نظرية العمدية التي خرجت بها فنمنولوجية هوسرل ليجعلها احدى القواعد الرئيسية ، بل كبرى قواعد وجوديته الجديدة . فالفنمنولوجية ، كما عرفها هوسرل نفسه ، هي « دراسة تركيب الوعي » ، وهي اذن تهتم بداخلية الانسان نفسه . انها تهتم بوعيه وتؤكد ، كما سيشرح لنا كولن ويلسون فيما بعد ، ان الوعي ليس مجرد مرآة تعكس لنا العالم ، كما ظن ديكارت ، بل هو جهاز معقد مكون من عدة مرايا وعدسات . وبكلمات هوسرل فان « العقل ليس آلة يمكن تفسير اخطائها كنتيجة لضغوط خارجية ، بل هو نتيجة عمدية داخلية» .

وهكذا يثور كولن ويلسون على الوجودية التقليدية الغارقة في السلبية والعدمية والهزيمة ، يثور بنوع من الحدس الديني (غير اللاهوتي او التقليدي طبعا) لكي يعطي الانسان حسا بالغاية يوحده وينفي سلبيته التي توحي له بانه وحيد في عالم فارغ وان تصرفاته ، كما يقول سارتر ، ليست ذات اهمية لأحد الا لنفسه . ان

كولن ويلسون يريد ان يغير الناس اولا ، لا امراضهم المباشرة او احوالهم الاجتماعية ، فهو يعتقد ان اقدر الناس هو « النفساني » مثل نيتشه او باسكال او حتى دوستويفسكي (لكنه يكره فرويد بلا مداورة) ، وليس القائد . انه يدعو بصراحة الى « انسان من صنف اعلى » (عقليا طبعا) ، انسان يحس بان الحالة القائمة هي « نصف حياة» فيندفع الى تعميق وعيه لكي يكون ما سماه احد النقاد « اكثر حياة » ، وهذا هو اللامنتمي الاصلي في تطوره الصعودي . اما كيف ، فهذا هو السؤال .

ان الفيلسوف لم يعد مجرد « متفرج على كل الكون وكل الوجود » كما قال افلاطون يوما ، بل انه صار كذلك شيئا شبيها بمنقذ روحي يهتم بالازمة كميزة للحالة الانسانية ويعنى بتجربة الانسان الذاتية في العالم الحاضر، لان الانسان لم يعد حسب الوهمية الرومانسية القديمة « طلسما الهيا ذا قيمة مطلقة لا يطولها العقل » ، بل هو نفسه القيمة الكبرى الحقيقية .

وليس من شأني هنا ان انقد كولن ويلسون مدحا ام ذما ، فهو اولا لم يقل كل ما عنده بعد . كل ما سأقوله ان هذا الشاب الفذ يقول لنا اشياء جادة جدا وتفاؤلية جدا وانه لا بد ان نصغي ونعي ثم نحلل وننقد ونقرر مهما قيل عنه ومهما اتهم به . وانا طبعا اقول ذلك على صعيد فكري بحت ، لان ما يتحدث عنه كولن ويلسون ، بل ربما لان معظم الفكر الغربي ، لا يمت لنا بصلة حياتية ثقافية مباشرة . (لكن ذلك لا يعني انه لا يستطيع ان يفيدنا ولو فكريا) . انه فكر حضارة متقدمة ، مهما قيل عن تفسخها، ونحن ليست عندنا حضارة ، لا ن الحضارة تقوم اولا بالفكر الحر الذي ينسف كل تراثنا الموبوء المحنط . ان ازمة الغرب ومشاكله ليست ازمتنا ولا هي مشاكلنا . ازمتنا بسيطة التعريف : ان نسترد ونحرر ادميتنا وعقلنا اولا ثم نبني حضارة جديدة .

لندن

سمير كتاب